إضاءة

تكشف قصص الكاتب البوسني عن سياسي ذي موهبة أدبية، يستجلي النمطية عن وطنه البوسنة، كصورة الضّرب الحالمين بعودة المَجد مقابل السلطة العثمانية.

قصص أُخرى لـ إيفو أندريتش

إضاءات جديدة على صاحب «الوجه العابس»

محمد م. الأرناؤوط

ارتبط اسم إيفو أندريتش الكاتب اليوغسلافي (1892 - 1975) عند القراء العرب، بروايته الأشهر «جسر على نهر درينا» التي ترجمها سامي الدروبي عن الفرنسيّة، وطبعت أكثر من مرة، بعد أن فاز مؤلّفها بـ«جائزة نوبل للآداب» (1961)، كما فتحت الطريق لترجمة بقية رواياته؛ «وقائع مدينة ترافنيك» و«الفناء الملعون» و«الآنسة»، سواء من الفرنسية أو من اللغة الأصليّة، التي ارتبطت بفترة انفتاح ثقافيّ بين يوغسلافيا السابقة والدول العربية ضمن حركة عدم الانحياز.

لكنّ الكتاب الجديد الصادر في عمّان عن «وزارة الثقافة» (2021)، لأندريتش «جسر على نهر جيبا وقصص أخرى» من ترجمة إسماعيل أبو البندورة، يُحيلنا إلى مجال آخر من إبداع الكاتب، يتمثّل بالقصص، كما تُحيل مقدّمته إلى أسئلة جديدة وإشكاليّة عن المؤلّف، وكان المترجم الأردنيّ، الذي تخرّج من قسم العلوم السياسية في «جامعة بلغراد»، بدأ اهتماماته في الترجمة منذ عودته إلى الأردن، فترجم أوّلاً «قصص يوغسلافية» لأندريتش و ميشا سليموفيتش (1992)، ثم ترجم روايات عدّة من الأدب البوسني الحديث والمعاصر، كرواية «المرجة الخضراء» لأدهم مولى عبديتش، و«القلعة» لسليموفيتش، و«الشهيد» لزلهاد كولتشانين، و«القَنّاق» لكامل سيارديتش.

وتجدر الإشارة، هنا، إلى أنّ أندريتش كان قد بدأ شاعراً، واشتُهر كاتباً قصصيّاً بعد أن نشر عدة مجموعات قصصيّة خلال سنوات 1920 - 1936 التي كان يعمل خلالها في وزارة الخارجية، قبل أن تستغرقه السياسة ويتولّى عام 1935 الدائرة السياسيّة في الوزارة ويصبح نائب وزير الخارجية عام 1937، ثم سفيراً ليوغسلافيا لدى ألمانيا النازية في 1939. وبعد الاحتلال الألماني ليوغسلافيا في نيسان/ أبريل 1941، عاد إلى بلغراد واعتكف في بيته متفرّغاً للأدب، وبالتحديد لرواياته الجديدة، إلى أن انتهى الصراع في الشوارع بانسحاب القوات الألمانية وتولّي الحزب الشيوعي للحكم في تشرين الأول/ أكتوبر 1944، فتكثّف بسرعة مع الحكم الجديد الذي لم يكن رحيماً مع «أعداء الشعب» من أنصار «يوغسلافيا الملكيّة» التي كان أندريتش أحد نجومها.

وكانت «مؤسّسة إيفو أندريتش» المعنيّة بتراثه الأدبي في بلغراد، قد عمدت عام 2012 إلى إعادة توزيع وإصدار قصصه في مجموعات جديدة حسب موضوعاتها، وليس كما نشرها أندريتش: «قصص بلغراد» و«قصص سراييفو» و«قصص تركيا» «قصص الرهبان» و«قصص عن النساء» و«قصص عن المدن» وغيرها. وهي التي اختار منها المترجم أبو البندورة 32 قصّة ما بين الاستكشات (صفحة أو صفحتين)، وما بين الأقصوصات والقصص التي تحتوي نواة رواية مثل قصة «جسر على نهر جيبا» التي حملت عنوان هذه المجموعة، والتي نشرها أندريتش في عام 1925.

هذه القصص، التي تحتاج إلى صبر أكبر لقراءتها، ممّن اعتاد على روايات أندريتش، تُكرّس الصورة المعروفة عن أندريتش السياسي الذي يعرف كيف يستخدم موهبته الأدبيّة في استجلاء الشخصيات النمطية، واختيار الأحداث التي تكرّس صورة نمطية لوطنه الأم البوسنة؛ مصير أبناء البوسنة الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا رهينة السلطة العثمانية حتى في أعلى مناصبهم، حال الصرب الأرثوذكس الذين بقُوا يحلمون باستعادة مجدهم في القرون الوسطى ويعملون على ذلك مع الإيحاء للسلطات بأنّ «ذلك من المستحيل» لكي لا تشكّ بهم، حالة العداء المزمنة بين المسلمين والمسيحيّين، وما تضخّه من مشاعر كره وترقّب للتخلّص من الآخر كأنّ ذلك قدر البوسنة، الخ.

كلّ ما سبق يبدو في القصّة الأولى والأجمل «جسر على جيبا» أحدُ فروع نهر درينا، إذ اشتهر بالجسر الضّخم الذي بناه الصّدر الأعظم البوسنوي صوقوللو محمد باشا، عند مدينة فيشغراد، وخصّص له أندريتش روايته «جسر على نهر درينا». وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ هذه القصة نُشرت عام 1925، يمكن اعتبارها نواة أو بروفة للرواية الأولى لأندريتش التي ستصدر عام 1945. ففي هذه الرواية يمكن اعتبار الجسر أحد أبطال الرواية؛ لأنّ الشغل الشاغل لأبناء المنطقة كان في كيفية السيطرة على الطبيعة الجارفة التي كانت تهدم كل جسر يبنونه إلى أن اهتمّ أحد أبناء المنطقة (الوزير يوسف باشا) وكلّف مهندساً إيطالياً ببناء جسر يصمد، ويذكّر الناس به.

وبالمقارنة مع الجسر الضخم عند مدينة فيشغراد، يبدو الجسر عند نهر جيبا متواضعاً جدّاً، إلى حدّ أنّه لم تتناوله المصادر التّاريخيّة، فعوّض أبناء المنطقة عن ذلك بالأساطير، التي اختار إيفو أندريتش واحدة منها ليبني عليها هذه القصّة المتميّزة بتصويره لدواخل الشخصيات الرئيسية. وخاصة ابن البوسنة الوزير العثماني الذي أراد خدمة أبناء منطقته، والمهندس الإيطالي الذي أبدع في بناء جسر مقاوم لتقلّبات الطبيعة، ولكنّه لم يعش ليتمتّع بالمكافأة الموعودة والشّهرة المنتظرة. ولدينا مثل ذلك أيضاً، قصة «صيف»، عن حملة قائد الجيش العثماني عمر باشا إلى البوسنة لفرض السلطة المركزية على بكوات المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر، التي تحوّلت لاحقاً إلى رواية بعنوان «عمر باشا لاتاس» نُشرت بعد وفاة أندريتش بعامين عام 1977.

ومقابل الصورة النمطيّة السلبيّة للوجود العثمانيّ في البوسنة، نجد في قصص عدّة أيضاً، صورة نمطية سلبية للوجود النمساوي - المجري، مع تسريب إشارات تفيد بوجود فضائل له، كما هو الأمر، مع الوجود العثماني. ولكنّ الشيء الأكيد للنظر في هذه المجموعة، قصة «ذلك اليوم» التي تدور حول «حرب الأيام الستة»، خلال تشرين الأول/ أكتوبر، في شوارع بلغراد بين القوات النازيّة وقوات «البارتيزان» التابعة للحزب الشيوعي اليوغسلافي. فقد نجح أندريتش في «جسر على نهر جيبا» في أن يبني مخيّلة جمعية بالاستناد إلى أسطورة شعبية متداولة منه لإثبات الولاء لحكم الحزب الشيوعي الجديد، بعدما شاهدَ ما حلّ بزملائه، من أنصار الحكم الملكيّ السابق، من تنكيل وسجن وإعدام باعتبارهم «أعداء الشعب».

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

ترجمات

إن كانت رواية «جسر على نهر درينا» أشهر أعمال أندريتش التي وجدت طريقها إلى العربية، فإن ترجمة إسماعيل أبو البندورة لـ«جسر على نهر جيبا وقصص أخرى» تأتي لتنضمّ إلى سلسلة من أعماله التي استضافتها العربية، مثل «حكايات من البوسنة» «وايماءات» اللذين ترجمهما زهير خوري، و«محطّة الباشا» (ترجمة إبراهيم نجيب حيدر)، إضافة إلى «الفناء الملعون» (ترجمة وليد السباعي، ونقلها أيضاً زهير خوري بعنوان «الفناء اللعين»).

تعريب

بين نهر وسجن

أنس الأسعد

بنى إيفو أندريتش عالمه السردي على صور نمطية للبوسنة مكاناً وتاريخاً، مسخّراً إيّاها في حركة داخلية ضمن رواياته وقصصه، كما ينبّه إلى ذلك الكاتب محمد م. الأرناؤوط، وهي نمطية كانت لها ارتداداتٌ سلبية على مشهد الأدب البلقاني. لذا، بات اسم صاحب الـ«جسر...»، يختزل أسماء أدبيّة أخرى من أبناء إقليمه. ثمّ جاءت «نوبل» التي نالها في ستينيّات القرن الماضي، لتفتح قنوات تلقّيه أدبيّاً، عند باقي الشعوب، إنّما بطريقة شديدة التحديد، بمعنى «أدب جوائز»، والموقف النقدي منه له حساسيته؛ نتساءل: أليس هذا شكلا من النّمطية أيضاً؟

نبقى في ذات السياق، وننظر إلى دَور الترجمة، التي تنشدّ بدورها خلف أضواء الجوائز، وتفتّش في الحضور على حساب الغياب. وهنا، تستوقفني تجربة الروائي الألباني بسنيك مصطفائي (1958)، وعمله المميّز «ملحمة صغيرة عن السجن» الذي تُرجم إلى العربية عام 2021، بتوقيع إبراهيم فضل الله.

مع مصطفائي، نرتحل من نزعة المكان كعنصر بطولة أسطوريّة، إلى النّفس المُعذّبة تحت وقع مكان جحيمي هو السّجن، الذي لا يُمثّل الأسطورة المنشودة أو القديمة، بقدر ما هو تجسيد لسلطة سياسية قاهرة وحاضرة، عاشتها ألبانيا بالفعل أثناء الحكم الشمولي. عربيّاً، إذا كان كلّ من «النهر» و«السجن» قد حضر أدبياً بفترات متباعدة، فوجدها الترجمة الجادّة يمكن لها أن تلعب دور «الجسر» الذي يُقيم جدليّة بين الطرفين، بعيداً عن النمطيّة والتكريس.

إيفو أندريتش في جدارية بمدينة فيشغراد اليوم في المجر التي كتب عنها

وهذا ما تكشّف في قصّته القصيرة «جسر على نهر جيبا»، الصادرة مؤخراً بتوقيع المترجم إسماعيل أبو البندورة، التي شيّد عليها أندريتش روايته الأشهر

تحيل مقدّمة مترجم الكتاب إلى إشكاليات وأسئلة جديدة

كتب روايته الأشهر منكفئاً عن الحرب المشتعلة في بلغراد

تلك اللحظات، عندما كانت المعارك تدور من شارع إلى شارع ومن عمارة إلى عمارة، اقتحم أحد مقاتلي «البارتيزان» - أصبح لاحقاً كاتباً صحافيّاً معروفاً - الشقّة التي كان يعيش فيها أندريتش ليُفاجئ بشخص يجلس إلى الطاولة، وهو يكتب على أوراقه تحت قصف المدافع وأزيز الرصاص. ولمّا عرفه فوراً سأله بدهشة عن هذه اللامبالاة فأجابه أندريتش: «في السنوات الأربع، تحت الاحتلال الألماني، كان لي هدفان: أن أبقى حياً وأن أبقى إنساناً. أعتقد أنني حقّقت هذين الهدفين. الآن يأتي مجتمع جديد. إذا قبلني فسأمنحُه كلّ ما يمكن أن أقدّمه، وإذا لم يقبلني فإنّني ببساطة سأعيش ما بقي من حياتي».

تبدو هذه القصّة نشازاً ضمن قصص أندريتش، أو محض محاولة منه لإثبات الولاء لحكم الحزب الشيوعي الجديد، بعدما شاهدَ ما حلّ بزملائه، من أنصار الحكم الملكيّ السابق، من تنكيل وسجن وإعدام باعتبارهم «أعداء الشعب».

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

إطلالة

من بين أسباب أخرى

باسم النبريص

لا بد من الانهمام والاهتمام بالتربية العاطفية، التعلم الذي يودّ تعميق نظرتنا للأمور؟ بدون العاطفي، ما هو الأساس الذي لدينا لكل شيء آخر؟ ما فائدة امتلاكنا للرغيف وأشياء أخرى؟ جشع الاستهلاك؟ ملء المكان بماديات، لمحاولة التستر على المخاوف، وإن لمس المشكلة الحقيقية، وهي حب النرجس؟ لم طوال عمرنا لا نجد قيمة أقل وأقل في الماديات، على نحو خاص؟ إنه رائع ألا تمتلك ولا حاجة، وأن تأكل كيفما اتفق، من يد الناس أو سلال الطريق، وتنام عارياً تحت سماء الله الفريدة؟

الانتقال من مكان إلى آخر، مع الامتنان لعدم العيش مع حقائب ملتصقة؟ عدم العيش مع هذه، لهو أمر خارق، في زمننا، على عكس الأزمنة المنقضية الطيبة؟ ما الذي ينتقل إلى الروح، بكرّ الزمن، وأنت عائش على الرصيف؟ كل شبكة المثقفين لا يمكنها أن تدلي برأي معقول أمام هذا السؤال، لأنها لم تجرّب؟ العيش على الرصيف، كالعيش في عزلة الفيلسوف، تحتاج إلى إله أو وحش؟

وفي حالتنا لا يروقنا مجالان كهذين، وإنما فقط أن نكون صعاليك الفطرة؟ حتى إذا صرت جيدًا بالتكيّف مع نفسك، فهذه إضافة نوعية إلى سعادتك؟ وبخلاف ذلك، فإن أول شيء يجب فعله، هو العمل على أشياء، هي في الحقيقة جزء من طبيعتنا، مثل مشاعرنا العميقة نحو الزهد والميل إلى الزوال؟

هكذا نصبح مهتمين بما يبقى، ويمكث في الأرض بين الناس، دون الحاجة إلى الوقوف على باب أي فندق أو مكتب وغد؟

مرة بكينا في سانتياغو دي تشيلي، لأننا تذكرنا من ماتوا من الرفاق في القدس؟ ما هي أخبار التنمية في عزيزتنا أفريقيا؟ مدن العربان ليست من المدن المستدامة؟ قوة الشعب في منع الموت من الإسهال؟ ممارسة الجنس مع إنسان نياندرتال يحمي العقلاء من فيروس نقص المناعة؟ عدم استيعاب فكرة العودة إلى الكهف؟ خاصة لو عملها أحد الحمقى الكبار وزرع النووي في تربة الكوكب الأزرق؟

حينها كل البشر غبار ذري، وحينها قد يتبقى عدد من نخبة النخبة، لا ينفعهم مال، وأخيراً يستسلمون بانكسار، لفكرة الإقامة في الكهف؟

نعم، ثم إن مسيرة الإنسان العاقل . كما يُزعم . لا تجعلنا متقاتلين به، لحد نفي هذا الاحتمال؟ فهو طوال مئتي ألف سنة، لا يتعلّم، حتى لو وقعت الفأس في رأسه، مليون مرة، لأنه أشد بهيمية والله من الحيوان الأعجم؟ ممارسة الجنس مع بالفعل، نتاج تطوّر وتقدّم المسيرة المظفرة؟ تقدّم مع إنتاج أفظع الكوابيس قاطبةً على الإطلاق؟ أين التناغم في زعم بهذا الحجم؟

لهذا، فإن فكرة زوال البشر عن الكوكب الأزرق للابد، فكرة لا تؤرقنا في العقد الأخير من عمرنا، وقد طُفنا ولفغنا وشُفنا، على الأقل؟ نووي، أو لا نووي، فالدول حيوانات كاسرة، في كل الأحوال، سيّان تعلّقت بمبدأ أم لا؟

وهل من السذاجة القول، إن كل هذا يحدث وسيحدث، لأن الناس، وخاصة السّاسة منهم، ما عادوا يرقعون قبعة من أي نوع (سواء أكانت جلدية أم من قماش)، لأي معْلم ثقافي؟ يفعلون ما يفعلون، كونهم يعانون من عدم استلطاف الشعر، من بين أسباب أخرى؟

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

حائز نوبل الذي سوّف لترانسفير عِرقيّ

سياسيّ يكتب أدباً

اطروحته لنيل الدكتوراة، التي لم تنشر إلا بعد وفاته (1975)، كشفت عن افكاره في مرحلة الشباب وعضويّته في «منظّمة البوسنة الفتاة»

الجسر العثماني الحجري على نهر درينا، فيشغراد - البوسنة (Getty)

في مقابل اعتبارهم لزملائه من الكتّاب «أعداء» للشعب، كان أقطاب الحكم الجديد في يوغسلافيا يقدّرون مكانة أندريتش الأدبيّة، ويعتبرون انحيازه لهم مكسباً يدعم سلطتهم. ومع ذلك، بقي رأس السلطة الجديدة (جوزيف بروز تيتو) على موقفه من الكاتب وماضيه في يوغسلافيا الملكيّة، ولم يقابله إلا مُكرهاً بعد فوزه بجائزة نوبل عام 1961. وطالما أنّ الحديث عن يوغسلافيا الملكيّة (1918 - 1941) التي كان أندريتش من نجومها، فتجدر الإشارة إلى أنّه كان في شبابه من أعضاء «منظّمة البوسنة الفتاة» المدعومة من جهات نافذة في صربيا، لأجل الترويج لتوحيد الصّرب في دولة واحدة، وهو ما كان يقتضي إشعال حرب مع النمسا وأخرى مع الدولة العثمانيّة. ومع اغتيال وليّ عهد النمسا، الذي نفّذه صديق أندريتش غفريلو برنسيب في 1914، واندلاع الحرب العالميّة الأولى، التي أدّت إلى انهيار النمسا وفتحت الطريق لتأسيس يوغسلافيا الملكيّة؛ كتب أندريتش الشاب إلى السلطة الجديدة مُذكّراً بجهوده، وهو ما فتح له الباب للعمل في وزارة الخارجية عام 1920، وصولاً إلى منصب نائب وزير الخارجية في 1937.

في تلك السّنوات بالذات كانت السلطات اليوغسلافيّة الملكيّة منشغلة مع تركيا الكماليّة في مشروع كبير لتهجير معظم المسلمين من جنوبيّ يوغسلافيا إلى تركيا باعتبارهم من «الأتراك» الذين لا يمكن استيعابهم في الدولة الجديدة. وحول ذلك، صدر عام 2019 كتاب يتضمّن وثائق وزارة الخارجية اليوغسلافية الملكية (1922 - 1941) يتضمّن فيما يتضمّن توجيهات نائب وزير الخارجية إيفو أندريتش إلى الممثليّات الدبلوماسيّة حول تسويق هذه العملية التي كانت تستهدف التخلّص من حوالي ربع مليون مسلم في جنوبيّ يوغسلافيا، وهو ما سنعود إليه في مناسبة أخرى.

ويقود هذا إلى ما أورده المترجم أبو البندورة في مقدّمته حول تقبّل أندريتش في دول يوغسلافيا السابقة، حيث صدرت دراسات جديدة بيّنت انحيازه الأيديولوجي ضدّ المسلمين منذ أطروحته للدكتوراة «تطوّر الحالة الروحيّة في البوسنة تحت تأثير الحكم التركي»، التي كتبها بالألمانيّة وناقشها في «جامعة غراتس» (1924). ولكنّه رفض ترجمتها إلى اللّغة الصربوكرواتية حتى وفاته (1975)، إذ تُرجمت ونُشرت بعدها لتوضّح الأساس الذي بنى عليه تصويره للأوضاع والشخصيّات في البوسنة، خلال الحكم العثماني. ولا شكّ في أنّ ما أثاره المترجم في مقدّمته مفيدٌ للقارئ العربي حتى يتفهّم أندريتش بشكل أفضل ويتعرّف على أسباب العزوف عنه في معظم دول يوغسلافيا السابقة.

.. الأرناؤوط

فعاليات

في «غاليري زاوية» برام الله، يستمرّ حتى السابع من حزيران/ يونيو المقبل معرض **ربيع 2022**، والذي يضمّ 18 عملا لستّة فنّانين فلسطينيّين تُقارب موضوع اللجوء بمستوييه التاريخي والنفسي. الفنّانون هُم: **عبد عابدي**، و**حسني رضوان**، و**نبيل عناني**، و**ناصر السومي**، و**يزن ابو سلامة** (العمل)، و**احمد كنعان**.

تنطلق، يومَ السبت المقبل، في «مركز الفنون الدرامية والركحية» بمدنين التونسية، فعاليات الدورة الخامسة والعشرين من **المهرجان الوطني لمسرح التجريب** و تتواصل حتى الرابع عشر من الشهر الجاري. تُشارك في التظاهرة سبعة عروض مسرحية، و تشهد إقامة أشغال الندوة العلمية السنوية، والتي تُناقش هذا العام موضوع **المصطلح المسرحي وأثره على المنجز الفنّي**.

تحتضن «ساقية الصاوي» في القاهرة، بين 11 و19 من الشهر الجاري، معرضاً للفنّان التشكيلي ورسّام الكاريكاتير المصري **ناجي ميشيل شنبو** (1946-2007) المعروف باسم **تاد**. يجمع المعرض، وهو الرابع عشر منذ رحيله، عدداً من لوحاته التشكيلية التي رصد فيها مظاهر من الحياة الاجتماعية في مصر بحسّ شعبي.

يتواصل في «المتحف الوطني للفنون والتعابير التقليدية - قصر احمد باي» بقسنطينة، حتى التاسع عشر من الشهر الجاري، معرضٌ للفنّان الجزائري **احسن قصير**، يضمّ منحوتات استلهمها من جدارية القصر التي أنجزها الرسّام **الحاج يوسف** بين سنتَي 1830 و1835، مُحاكياً رحلة عودة احمد باي من الحج عام 1818.